

## الخطاب الشعري

بين

الأصالة و المعاصرة

obeikandi.com

مفهوم الأصالة والمعاصرة ليس جديدًا على النقد الأدبي ، فقد تحدث فيه كثيرون واستفاضوا ، ولا بأس أن نشير إليه مادمنًا في معرض الخطاب الشعري وما يتعلق به لما بينهما من صلة ، خاصة إذا علمنا أن الصلة وثيقة بينهما من منطلق أن الخطاب الشعري وليد عصره ، وابن جيله ، صحيح أن له مكونات ثابتة متعارف عليها ، لكن ظروف العصر ومتطلباته لها كبير الأثر في مضمون الخطاب ومحتواه ، ذلك أن بنية الخطاب كالبناء له دعائم ثابتة : أعمدة وحجارة وسقف وأبواب ونوافذ ولكن تشكيل هذه الدعائم يختلف في الحجم والشكل والطلاء من عصر إلى عصر .

والتأمل بنية الخطاب الشعري يجد له اختلافًا ملحوظًا على مر العصور .

ففي العصر الجاهلي كان عمود الشعر هو السائد ، وكانت مقاييس النقد تراعيه ، ويضعه النقاد نصب أعينهم وفاضلوا بين الشعراء من منطلقه ، وكان الخروج على عمود الشعر أمرًا مستهجنًا في رأى كثير من كبار النقاد آنذاك ، وكانت النظرة جزئية تتمثل في بيت أو بيتين أجاد فيهما شاعر وأخفق آخر واتسمت الرؤية إلى الخطاب الشعري – إن صح هذا التعبير – بما يلي :

- النظرة إلى اللغة ووجه الإجابة فيها وحسن استخدامها .
- النظرة إلى العروض وصناعة الشعر .

- النظرة إلى متانة الأسلوب وجودة المعنى .
- تعميم القول دون تعليل .

هذه النظرة النقدية انعكاس صحيح لما كان عليه الخطاب الشعري .

أما في صدر الإسلام :

حدد الإسلام النظرة إلى الشعر وأحاطها بمقاييس وأطر من الأخلاق والقيم التي دعا إليها ، فكان الهجاء أمراً مستنكراً لأنه يمس أعراض الناس : ويثير العداوة والخصومة والبغضاء ، وخلص الخطاب الشعري إلى الدفاع عن القصيدة الإسلامية ، والرد على أعداء الدين والدعوة إلى نشر الفضيلة ، ومن ثم اتسم النقد بمراعاة ما يلي :

- الصدق وعدم المبالغة .
- اتخاذ الأخلاق والقيم الحميدة أساساً في تقييم الشعر وتفضيله .
- الموازنة – أحيانا – بين الشعراء ، والاستناد إلى الأخلاق في الأحكام النقدية .

لذلك أخذ الشعراء على عاتقهم ما دعا إليه الإسلام ، فكانت لغة الخطاب

الشعري تسير في فلك الأخلاق والقيم ، وابتعدوا تماماً عن الهجاء وعدوه جرماً كبيراً .

- وفي العصر العباسي ، ومع اتساع الدولة ، ورفيها وما صاحب ذلك مت اختلاط وتفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى انتقل الشعر والنقد انتقاله كبيرة تمثلت في :
- إبداء الرأي الصريح في شعراء العصر.
- ظهور الرأي المعلل والمدعم بالحجة والدليل، وتمثل ذلك في الموازنة بين الشعراء.
- إبراز مواضع القوة أو الضعف لدى شعراء العصر.
- ظهور المؤلفات النقدية ، والكتابة الخالصة في أمور النقد وتناول قضاياها : كقضية اللفظ والمعنى ، والسراقات ، والانتحال ، والصنعة والموهبة وغيرها من الموضوعات .
- ثم كان العصر المملوكي والعثماني الذي برز الاتجاه فيه واضحاً نحو الموسوعات والمعاجم ، واقتصار لغة الخطاب الشعري على شعر الإخوانيات والمناسبات ، ضعف الحركة النقدية المتعلقة بالشعر والأدب بوجه عام .
- أما في العصر الحديث ، ومع الاتصال الوثيق بين الثقافات والحضارات المختلفة في الشرق والغرب ، وظهور المذاهب والاتجاهات الأدبية ومدارس الشعر المختلفة ، فقد اتسعت دائرة النقد ، ومن قبلها تنوعت لغة الخطاب الشعري وبدا الاختلاف ملموساً بين طوائف الشعراء .

فقد اتجه الكلاسيكيون إلى التراث وولوا وجوههم شطره وأكدوا على جانب جودة اللفظ والأسلوب والموسيقا وتقليد القدماء .

وعلى الطرف الآخر رفدت الثقافة الأجنبية شعراء جماعة الديوان برفد جديد تمثل في الوحدة العضوية ، والعناية بجانب الفكرة ، ومواكبة ظروف العصر ومستجداته ، والخروج عن الإطار المتمثل في تقليد القدماء ، وكان كتاب " الديوان " تعبيراً عن آرائهم وبداية للمعركة الضارية التي دارت رحاها بين أصحاب هذا الاتجاه التجديدي الذهني وأولئك الشعراء الإحيائيين . والمتمثل في هجوم كل من العقاد والمازني على أحمد شوقي وحافظ إبراهيم – ثم كان ظهور شعر التفعيلة والمدرسة الجديدة في الشعر نقلة كبيرة في لغة الخطاب الشعري مالت به إلى الرمز واستخدام الأساطير وإيحاءات الألفاظ ، اعتماداً على تراسل الحواس التي تجعل من المسموع مسموماً ، والمشموم مرئياً ، فضلاً عما حدث من تغيير في البناء الموسيقي للقصيدة فلم تعد القافية أمراً ملزماً ، بل تخلى عنها بعض الشعراء تماماً في قصائدهم، بل وصل الأمر إلى ظهور ما يسمى ( قصيدة النثر ) وتفنن الشعراء في تشكيل القصيدة تشكيلات جديدة مستندة إلى الدفقات النفسية والشعورية ، والاستناد إلى الواقع ومعاناة إنسان العصر الحديث ، وما يحيط به من تغيرات ومستجدات .

لقد ثار جدل كبير حول مفهوم المعاصرة ، والمقصود بها ، وطففت على السطح أسئلة كثيرة : - هل ينخرط الشاعر في أحداث عصره وينفصل كل الانفصال عن تراثه ؟ أم يجمع بين الاثنين ؟ وهل هناك حدود واضحة ثابتة للمعاصرة ؟ أخذت هذه القضية - الاصاله والمعاصرة - مساحة كبيرة وتضخمت وصار لكل من المفهومين أنصاره ومؤيديه .

لنحاول الوقوف على مفهوم المعاصرة ، لقد ذكر الدكتور عز الدين اسماعيل نوعين من العصرية ، كل منهما بعيد عن التصور السليم للعصرية ، حيث يقول : " النمط الأول هو الذي يتمثل فيما نسميه النظرة السطحية لمعنى المعاصرة ، حيث نجد الشاعر يتحدث عن مبتكرات عصره ومخترعاته ظلماً منه أنه يمثل عصره ويشارك فيه ، والحقيقة أنه بذلك إنما يعيش على هامشه ، ويمثل هذه النمطية دعوة أبي نواس للتجديد ، وذلك بترك المقدمة الطللية والتحدث عن حانات العصر ، وكذلك دعوة أحمد شوقي للتجديد في مطلع العصر الحديث بوصفه للمخترعات الحديثة ، كالطيارة والغواصة .. إلخ والنمط الثاني يتمثل في الدعوة المغالية التي تدعو إلى العصرية المطلقة والتي توشك أن تنفصل نهائياً عن التراث (1) والحقيقة كما يقول الدكتور سعد محمد زياد : " جميع الشعراء الذين يعيشون بيننا عصريون لسبب بسيط هو أنهم أبناء هذا العصر " ويقول : " ولكننا نرى - كما يرى غيرنا - أنه ليس بالضرورة دائماً أن يكون الجديد عصرياً إلا في ظروف بعينها ، فلو تناولنا الشعر كجنس من أجناس الأدب ليكون أنموذجاً لحركة التجديد المعاصرة ، فقد

١- الشعر العربي المعاصر ، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ، د / عز الدين اسماعيل .

يكون جديداً في شكله ، وإن تغلغل فيه نبض القديم ، وروحه وقد يتصادف – وهذا كثير – أن يكون الشعري تجربته الجديدة أعنى الشعر الحر أو ما يعرف بشعر التفعيلة مجرد احتذاء وتقليد للنماذج الجيدة والأصيلة لا يتجاوز الشكل أو الظاهرة بينما يخلو في فنياته الخاصة من التجديد " <sup>(١)</sup> ويقول د / عز الدين مدعماً وجهة نظره " ليس المجدد في الشعر إذن هو من عرف الطيارة والصاروخ وكتب عنهما ، فهذه في الحقيقة محاولة عصرية ساذجة فالشاعر قد يكون مجدداً حتى عندما يتحدث عن الناقاة والجمال ، فليس المهم بالنسبة للتجديد هو ملاحظة شواهد العصر ولكن المهم هو فهم روح العصر " <sup>(٢)</sup> ولسنا هنا في مجال الانحياز إلى أحد المفهومين : المعاصرة أو الأصالة ولكن المطلوب هو أن يواكب الإنسان عصره ويعيش ظروفه وقضاياها ، ويحافظ في الوقت نفسه على أصالته وتراثه ، يزاوج بين الحاضر والماضي ، لأن الانخراط في المعاصرة ونسيان الماضي والتراث وتركه شطط وجور ، لأن في التراث قيماً ، ومعارف وفيه ما يصلح حياة الإنسان ويرشده ويهديه لأنه خلاصة تجارب ، وعصارة عقول واعية ، ومجهود حكماء حرصوا على خدمة ما يأتي بعدهم من أجيال ، فليس من العدل ترك مثل هذه الكنوز الثمينة ، قد يكون في هذا التراث ما يمكن الاستغناء عنه لعدم جدواه فلا ضير أن نتركه ، لكن لا ندع الصحيح والجيد منه ولا نفرط فيه بل نأخذُه ونضيف إليه " لقد عودنا تاريخ الأدب بعامة على ما نسميه " المعركة بين الجديد والقديم " حتى أصبح هذا التصور تقليدياً ، وقد ارتبط بهذا التصور بطريقة تلقائية تصور آخر هو أن كل تجربة جديدة إنما تحمل نوعاً من

١- الخطاب الشعري بين المعاصرة والتراث ، د / سعد محمد زياد .

٢- الشعر العربي المعاصر ، د / عز الدين اسماعيل

العداء للقديم المتوارث أو المستقر" (١) إذ ينبغي ألا نقف موقف العداء من تراثنا القديم ، لمجرد أنه قديم ، ومن يفعل ذلك فقد جاوز القصد " لأن المغايرة لا تعنى المعادة فإذا كانت التجربة الجديدة تختلف في منحها الجمالي – شكلاً وموضوعاً – عن منحى الشعر القديم فينبغي ألا نسرع فنستخلص من هذا أن أصحاب هذه التجربة يعادون الشعر القديم ؛ فقد كان هذا وليدًا شرعيًا لكل ما سبقه من الاتجاهات " (٢) لقد نسي المختصمون حول التراث والمعاصرة أن " التواءم بين المفهومين أمر ضروري يفرضه التطور والحكمة التي تمر فيه مسيرة الأجيال المتتابة فلا يصح أن نتوقع ونفضل ما يدور حولنا من تطور وتقدم ، كما لا ينبغي أن نغمض أعيننا ونصم أذاننا عن موروثاتنا التي كانت ولا شك مصدر عزنا وعطائنا " . (٣)

صحيح أن الخطاب الشعري تمرد على الأشكال القديمة للشعر وقوابله وقوافيه ، ولكن وجود الخطاب الشعري بصورته الجديدة لم يلغ التراث ، كما يظن البعض ، بل هو امتداد له واستمرارية لتجارب كثيرة عبر عصور الأدب ، حتى وصلت إلينا ، وبدت في هذه الصورة الجديدة .

---

١- الشعر العربي المعاصر ، د / عز الدين اسماعيل .  
٢- نفسه .  
٣- الخطاب الشعري بين المعاصرة والتراث ، د / سعد محمد زياد .